قيمة الجميل في الشعر الجاهلي (دراسة تحليلية)

الطالبة : شذا مندو

اشراف : د. منار العيسى

كلية الآداب – جامعة البعث

ملخص البحث :

وعى الإنسان في العصر الجاهلي طبيعة حياته وظروف بيئته الصحراوية، التي فرضت عليه حياة من نوع خاص، فكان محتماً عليه الالتزام بجملة من العادات والتقاليد والقيم الأخلاقية التي ساعدت طبيعة هذه الحياة على ظهورها.

لكن ذلك لا يعني خلو المجتمع الجاهلي من الكثير من الممارسات اللاأخلاقية والنقائص والسلبيات، سواءَ على مستوى العادات أو التقاليد أو القيم الأخلاقية، وقد أدرك هذا التناقض الشعراء ونقلوه إلى شعرهم.

وانطلاقاً من تمييزهم بين المحمود والمذموم، بين الجميل والقبيح ، تمكَّن الشاعر الجاهلي من ملاحظة جمال القيم الخلقية ووعى قبح تركها، لذلك كان هذا البحث لدراسة مظاهر الجميل في أخلاق العرب، والجوانب الجمالية في الصفات المعنوية عند كلٍّ من النساء والرجال، وتناول بالدراسة والتحليل بعض الشواهد الشعرية للكشف عن مكامن الجمال في كل خلق نبيل تحدثت عنه الأبيات.

الكلمات المفتاحية : علم الجمال – القيمة – الأخلاق – الحكمة – الكرم.

Reserch Summary:

In the pre-Islamic era, man became aware of the nature of his life and the conditions of his desert environment, which imposed on him a life of a special kind, so it was inevitable for him to abide by a set of customs, traditions and moral values which helped the nature of this life to appear.

However, this does not mean that pre-Islamic society is devoid of many immoral practices, contradictions, and negatives, whether at the level of customs, traditions, or moral values. Poets have realized this contradiction and transferred it to their poetry.

and based on their distinction between the praiseworthy and the reprehensible, between the beautiful and the ugly, the pre-Islamic poet was able to notice the beauty of moral values and was aware of the ugliness of leaving them.

Therefore, this research was to study the manifestations of the beautiful in the ethics of the Arabs, and the aesthetic aspects in the moral traits of both women and men,

And standing on poetic models that dealt with this subject and clarified it and studied it in an analytical study to reveal the reservoirs of beauty in every noble creation that the verses talked about.

Keywords: aesthetics - value - ethics - wisdom - generosity

تتأتى أهمية البحث من كونه يحاول الكشف عن جوانب الجمال في أخلاق العرب في جاهليتهم، والوقوف على تمثُّلهم لهذه الأخلاق، ومدى تمسُّكهم بها، وحضِّهم عليها، وتبيان فضلها في رفع قيمة الإنسان وتخليده بعد موته، كما يهدف البحث إلى دراسة جمالية القيم الخلقية التي تحلى بها العرب في الجاهلية، للكشف عن طبيعة وعيهم الجمالي، وتخصيص الحديث عن أهمها : كالحكمة والكرم، وتتبعها في الأغراض الشعرية، ودراستها دراسة تحليلية معتمدة على المنهج الجمالي، فكان منهج البحث هو المنهج الاجتماعي، إلى جانب المنهج الجمالي، للاستفادة من قيمه ومقولاته الجمالية في دراسة النصوص الأدبية، فكانت مشكلة البحث في الحديث عن منظومة الأخلاق في العصر الجاهلي، وإمكانية إخضاعها لمقاييس علم الجمال ودراستها وفق معاييره.

علم الجمال:

الجمال: لغة:

جاء في اللسان: "الجمال مصدر الجميل، والفعل جَمُل، وقوله عز وجل: ولكم جَمَال حين تُريحون وحين تسرحون، أي بهاء وحسن. ابن سيده: الجمال يكون في الفعل والخلق" [1]، والجمال كما قال ابن قتيبة: "أصله من الجميل وهو وَدَك الشحم المذاب. يُراد أن ماء السِّمَن يجري في وجهه"[2]، و"جَمَّلَهُ تجميلاً: زَيَّنَهُ" [3]، ويُقصد من ذلك المعنى الحسي للفظة الجمال، أما ما قيل عن معناه المعنوي، فقد قال ابن الأثير: "الجمالُ يقع

[1] لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور ، دار صادر ، بيروت ، د.ط ، د.ت ، مادة(جمل).
[2] مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، القاهرة، د. ط، 481.
[3] القاموس المحيط، مجد الدين بن يعقوب الفيروز آبادي، تح: أنس محمد الشامي، زكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، د. ط، 295.

على الصور والمعاني، ومنه الحديث، إنَّ اللّه جميل يحب الجمال أي حَسَن الأفعال كامل الأوصاف"[1].

فالجمال من معناه اللغوي يدل على جمال الخَلْقِ والخُلُق، ويدل على جمال الأشكال والصفات، والأخلاق والأفعال.

اصطلاحاً:

الجمال في معناه الاصطلاحي ، هو:" صفة تُلحظ في الأشياء، وتبعث في النفس سروراً ورضى. والجمال من الصفات ما يتعلق بالرضا واللطف، وهو أحد المفاهيم الثلاثة التي تنسب إليها أحكام القيم، أعني الجمال والحق والخير" [2]، والجمال كعلم، فهو "علم يبحث في شروط الجمال، ومقاييسه، ونظرياته، وفي الذوق الفني، وفي أحكام القيم المتعلقة بالآثار الفنية، وهو باب من الفلسفة"[3].

وبذلك فالجمال عند الفلاسفة يبعث على الارتياح و السرور عندما تتحقق شروط علم الجمال ومقاييسه وأحكامه مع عناصر الموضوع الذي يُعنى بدراسته.

القيمة:

لغة: جاء فِي المِصْبَاحِ المُنِيرِ: " (القَوامُ) بِالْفَتْح العَدْلُ وَالِاعْتِدَال قَالَ تَعَالَى : ((وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قواماً)) أَي عدلاً وَهُوَ حَسَنٌ (القوام) أَيْ الِاعْتِدَالِ . . و (القيمة) الثَّمَنْ الَّذِي (يُقاوَم) بِه الْمَتَاعُ أَيْ (يَقُومُ مَقامَهُ) وَالْجَمْع (القِيَمُ)" [4].

[1] لسان العرب ، ابن منظور ، مادة(جمل).

[2] المعجم الفلسفي، د. جميل صليبا ، دار الكتاب اللبناني ، مكتبة المدرسة ، بيروت - لبنان، د. ط ، 407.

[3] نفسه ، 407.

[4] المصباح المنير ، أحمد بن علي المقري الفيومي ، المكتبة العلمية ، بيروت _ لبنان ، د . ط، د . ت ، ج1، 520.

وَقَدْ أَوْرَدَ الزُّبَيْدِيّ تَعْرِيف القِيمَة مجازاً " وَمِنْ المَجَازِ: قَامَتِ الأَمَةُ مائةَ دِينَار : أَيْ بَلَغَتْ قِيمَتُهَا ذَلِك . . . وَأَمر قَيِّمٌ : مُسْتَقِيمٌ وَخُلُقٌ قَيِّمٌ : حَسَنٌ، وَدِين قَيِّمٌ : مُسْتَقِيمٌ لَا زَيْغَ فِيه "[1].

أما اصطلاحاً:

فمدلولها المادي يجعلها " خاصية تجعل الأشياء مرغوباً فيها. فالنبالة مثلاً، لها قيمة عظمى لدى الاستقراطي "[2]، ولمدلولها المادي " أ- قيمة استعمالية ... لسلعة ما هي المنفعة الناتجة عن استعمالها . ب - قيمة تبادلية ... عندما نقابل سلعة بسلعة أخرى أو بالنقد "[3].

أما د. إبراهيم مدكور فأورد مدلولها المعنوي، فهي " صفة عينية كاملة في طبيعة الأقوال (في المعرفة)، والأفعال (في الأخلاق)، والأشياء (في الفنون) "[4].

ومما سبق يلاحظ تطابق معناها اللغوي ومعناها الاصطلاحي، فهي إضفاء أهمية، وإكساب تقدير، وإعلاء من شأن الأفعال، والأقوال، والأشياء، في جانبها الإيجابي.

فعندما تكون الأفعال نبيلة تكتسب قيمة خلقية، وعندما تكون الأشياء رائعة تكتسب قيمةً جمالية.

[1] تاج العروس ، تاج العروس من جواهر القاموس، مرتضى الزبيدي، تح: علي شيدي، دار الفكر، بيروت_ لبنان،592 – 597.
[2] المعجم الفلسفي ، مراد وهبة ، دار قباء الحديثة ، القاهرة ، ط 5 ، 506.
[3] نفسه ، 506.
[4] المعجم الفلسفي ، د.إبراهيم مدكور ، 151.

مفهوم الجميل:

إن أولى مراحل تعرف الإنسان على الجمال هو وجود موضوع جميل يجذب انتباهه، ويحرك مشاعره نحوه، وامتلاكه حساً عالياً بالجمال.

وطالما وجد موضوع الإحساس بالجمال فإنه يستلزم بيان موقف الذات منه، لأنه "وإن كان يخاطب الشعور إلا أنه مصحوب بإدراك وبحكم نقدي أو بفعل تفضيل بمعنى أننا لا نفضل الأشياء لأنها تنطوي على جمال معين وإنما تصبح جميلة وذات قيمةٍ لأننا نفضلها"[1].

وعندما يغدو الشيء الجميل موضوعاً للتفاضل والتمايز، يختلف إدراك الأفراد للجمال باختلاف المجتمعات، بدائية كانت أم متحضرة، واختلاف طبيعة الأفراد، وتكوينهم الثقافي، ومستوى تطورهم الفكري، ومدى تأثير البيئة والمحيط على نمط الأفكار وصياغتها، وقدرة كل فرد على تقبل ما يطرأ من تغييرات على المجتمع مع مرور الزمن.

وقد جسد العرب وعيهم للجمال وإدراكهم له وتذوقوه في شعرهم، فكان بحق ديوان العرب.

عدم اقتصار الجميل عند الجاهلي على صورة المرأة المثال:

ذهب الدكتور شكري فيصل إلى أن "المرأة هي جماع كل مظاهر الجمال وصوره فهو لا يشهد غيرها في حياته الرتيبة، وهي تكاد تكون لذلك محور اهتماماته النفسية ووثباته العاطفية " [2] ، فإن هذه النظرة تجعل من الإنسان الجاهلي إنساناً بدائياً، خالياً من المعارف والتجارب والمهارات، صحيح أنَّ الحياة في الجاهلية مقتصرة على صحراء

[1] مقدمة في علم الجمال و فلسفة الفن ، د. أميرة حلمي مطر ، دار المعارف ، القاهرة ، ط1 ، 1989 ، 12 .
[2] - تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام ، د. شكري فيصل ، مطبعة جامعة دمشق ، سوريا ، د.ط ، 1379ه – 1959م ، 144.

واسعة مقفرة، لكن هذا لا يعني أن الجاهلي لم يكن لديه وعيٌ بالجمال، أو أقل درجات الإحساس بالجمال.

على أن الجمال الحقيقي لا يكون في الشكل الخارجي، بل في التركيب الخلقي للفرد، فالثابت عند العرب في الجاهلية أن القيم الأخلاقية هي قوام حياتهم، والمحافظة عليها، والتمسكُ بها محافظةٌ على بقائهم ووجودهم وضمانٌ لهما، لما في ذلك المجتمع من حروب و ممارسات لأخلاقية، فلا خيار لديهم إلا التحلي بالأخلاق، والانضباط بقواعد السلوك السليم، في مجتمع لا رادع فيه، ولا سلطة – بمعناها الكامل – إلا الالتزام بالفضيلة، والعمل بالأخلاق.

ومن ذلك قول عمرو بن معدي كرب:[1]

لَيْس الجَمَالُ بِمِئْزَرٍ فَاعْلَمْ وَإِنْ رُدِّيْتَ بُرْدا

إنَّ الجَمَالَ مَعَادِنٌ وَمَنَاقِبٌ أَوْرَثْنَ مَجْدا

فقد وجد عمرو بن معدي كرب، وغيره من الشعراء أن حقيقه الجمال تكمن في إنسانية الإنسان، وفي جوهره ومعدنه الأصيل، لا في شكله الخارجي، أو ما يرتديه من ثياب، أو ما يتزيَّن به من حُليّ.

و قول الشاعر (مناقب أورثن مجداً)، أن من كان كريماً أو شجاعاً أو صبوراً أو حليماً أو حكيماً أو... إلخ، قد ذهب بجسده، وشكله، وحلته، وذهب من أكرمهم وساعدهم ، وتفضَّل عليهم، ولم يبق منه إلا جميل فعله وكريم أخلاقه، ورفعة أصله الطيب.

وقد رسخ كل ذلك الشعراء في شعرهم، دافعين غيرهم إلى التمسك بجميل الأخلاق، وأرفع القيم، لأنه الخلود الحقيقي لهم، فلا مال يخلد الإنسان ولا جماله ولا زينته.

[1] شعر عمرو بن معدي كرب الزبيدي، مطاع الطرابيشي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق_سوريا، ط2 ، 79-80.

وقد لجأ الشعراء إلى ربط جمال الطبيعة حولهم بجمال المرأة، فقد عمد الشاعر إلى تشبيه جمال وجه المحبوبة بإشراقة الشمس، كما في قول النابغة:[1]

بَيْضَاءُ كَالشَّمْس وَافَتْ يَوْم أسعدها لَم تُؤْذِ أهلاً، وَلَم تُفحش عَلَى جَارٍ[2]

فقد قرن بياض وجهها، والنور المنبعث منه ببياض الشمس، فهي تبدو مانحة الضياء والإشراق للكون، وإحساس الشاعر بجمال الشمس وسطوع ضوئها وانتشاره، لا يقل عن إحساسه بجمال المحبوبة، وكذلك ما فعله عنترة عندما أراد الحديث عن طيب رائحة ثغر عبلة، من خلال وصفه لروضة ساحرة، في قوله:[3]

أَوْ رَوْضَةً أُنُفاً تَضَمَّنَ نَبْتَها غيثٌ قَلِيلُ الدِّمْنِ لَيْسَ بِمَــعْلَمِ[4]

جَادَتْ عَلَيْهَا كُلُّ عَيْنٍ ثَرَّةٍ فتركْنَ كُلَّ حَدِيقَةٍ كَـالدِّرْهَـــمِ[5]

سَحَّاً وتَسْكاباً فَكُلُّ عَشِيَّةٍ يَجْرِي عَلَيْهَا المَاءُ لَمْ يتصـــرَّمِ[6]

فَتَرَى الذُّبَابَ بِهَا يُغَنِّي وَحْدَهُ هَزِجاً كَفِعْلِ الشَّـــــارِبِ المُتَرَنِّمِ[7]

غَرِداً يَسُنُّ ذِراعَهُ بذِراعِهِ فِعْلَ المُكِبِّ على الزِّنادِ الأجْذَمِ[8]

[1] ديوان النابغة الذبياني ، عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت_لبنان، ط3، 20 .

[2] يوم أسعدها : أي أنها تطل في يوم سعيد نسبة إلى برج سعد السعود الذي يبدأ في السادس و العشرين من شهر شباط و ينتهي في التاسع من شهر آذار تقريباً .

[3] ديوان عنترة ، تح: محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي، القاهرة، د. ط، 123 .

[4] الدمن : البعر، معلم : مكان مشهور.

[5] المطر الجود : وهو الغزير، العين مطر دائم أيام لا يقلع ، الثرة : الغزيرة .

[6] السح و التكساب: الصب الشديد ، يتصرم : ينقطع ، خص مطر الصيف والعشي : لأنه أغزر.

[7] الهزج : المتتابع الصوت ، كفعل الشارب : شبه غناء الذباب بغناء الشارب ، المترنم : الذي يترنم بالغناء أي يمد صوته ويرجعه .

[8] الغرد: الذي يمد صوته ويطرب ، يسن : يحدد ، ومنه سن السكين . الزناد وهو العود الأعلى ، الأجذم : المقطوع الكف.

وهنا أخرج عنترة مشهداً متكاملاً لروضة – غير واضحة المعالم، ولم تطأها قدم لعدم شهرة موضعها – حوت كل تفاصيل الجمال، وأراد من خلالها تشبيه رائحة ثغر عبلة بريح النبات الذي هطل عليه المطر، وتجمعت مياهه في بركٍ صغيرة، بدت لنقائها واستدارتها كالدراهم المتناثرة على أرض الحديقة، فالأمطار لا تنقطع عنها، كأنها تنصب من السحاب لتسقط على الأرض جداول، فتعشب الروضة، و يأتي إليها الذباب متغنياً بصوت متتابع، كشارب يمد صوته ويرجعه.

وينتقل إلى تصوير حركة الذباب حين يسقط في هذه الروضة، فيحك إحدى ذراعيه بالأخرى كرجلٍ مقطوع الكفين.

و قد جاءت الصور متناسقة مع دلالاتها، وكشفت عن عاطفة صادقة انطلق منها الشاعر وحشد لها تشبيهات كثيرة جعلت وصفه متكاملاً، مضيفاً إليه عنصر الصوت والحركة، ليبدو إخراجه للمشهد متكاملاً، فأعطت صوره وقعها وفاعليتها في المتلقي.

كما كانت نظرة الشعراء إلى الموضوع الجميل تقوم على تقديمه المنفعة، فالقمر له دور في هداية الساري في الصحراء ليلاً، وإنارة الطريق له، رغم خفوت ضوئه، إلا أنه يؤنس وحشته، و يشق ظلام الليل، وهذا لا ينفي جمال القمر الساحر، فقد أقام الشاعر علاقة تشابه بين القمر ووجه المحبوبة، وكان التغني بجماله في مختلف أطواره ديدن الشعراء، بل أصبح وكأنه معيارٌ من معايير الجمال، إذا شبهت به المرأة حازت الجمال الكلي، كقول عمر بن معدي كرب:[1]

وَبَدَتْ لَمِيسُ كَأَنَّهَا بَدْرُ السَّمَاءِ إِذَا تَبَدَّى

استمد الشاعر المشبه به من الطبيعة، وهو القمر، عندما يبلغ طور البدر فإنه يحوز أقصى درجات الجمال والاكتمال والوضوح، وكذلك بدت لميس للشاعر عندما كشفت عن وجهها، فبدا له كالبدر المنير في سماء مظلمة.

[1] شعر عمرو بن معدي كرب، 81.

وعليه، فإنَّ كثرة استخدام الشعراء لظواهر مختلفة، وتكرارها في شعرهم يدل على أمرين "أولهما أن هذه الظواهر موجودة في الحياه نفسها، وأن الإقرار بجمالها إقرار جماعي شامل يعبر عن الذوق الجمالي للمجتمع الجاهلي. وثانيهما أن الشعر الجاهلي شعر شفوي يعتمد فيه الشاعر على مخزون تقليدي جماعي من الصيغ والتراكيب في بناء أشعاره"[1].

وأخيراً، فقد عمد الشعراء في مثل هذه الشواهد إلى التركيز على جمال مظاهر الطبيعة حولهم من خلال تشبيه كل ما تقع عليه عينه من جمال بجمال المرأة التي يحب، وكأنه يرسم لوحه فسيفسائية لمحبوبته، وكل قطعة منها مستمده من شيء جميل، ليجمع الجمال الكلي في صورة المرأة المثال.

كما أدرك العربي جمال ما حوله من موجودات حسية، بوصفها أشياء جميلة في ذاتها، وبرع في وصفها وتصويرها، مبرزاً جوانب الجمال فيها، كقول لبيد بن ربيعة:[2]

بذي بهجةٍ كنَّ المقانبِ صوبَه وزيَّنهُ أطرافُ نَبْتٍ مُشرَّبِ

جلاهُ طلوعُ الشمسِ لما هبطْتُهُ وأشرفتُ من قُضفاله فوق مرقبِ

فهو يصف الأرض بعدما هطلت عليها الأمطار، فنبتت فيها أشكال من النباتات الملونة، وزاد من حسنها إشراق الشمس عليها، فأكسبتها جمالاً و بهاءً.

فقد أدرك العرب الجمال في كل شيء "وتذوقوه، وأدركوه في الطبيعة، وأدركوه في المرأة، وأدركوه في فن القول"[3].

[1] الوعي الجمالي عند العرب قبل الإسلام ، فؤاد المرعي ،، الأبجدية للنشر، دمشق، سوريا، ط1، 76.
[2] ديوان لبيد بن ربيعة العامري، دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت، 29.
[3] الغزل في العصر الجاهلي ، أحمد محمد الحوفي ، مطبعة لجنة البيان العربي ، نهضة مصر ، مصر ، ط1 ، د.ت ،24.

-جمال المرأة المعنوي:

أكثر الشعراء من التغني بجمال المرأة الحسي، لكن هذا لا يعني أنهم أغفلوا الجوانب المعنوية في المرأة، إذ " ليس جمال الروح بأقل تأثيراً في نفس الرجل من جمال الجسد، بل لعله أعمق منه أثراً وأبعد غوراً وأقوى اجتذاباً" [1] ، و قد تمثَّل الجمال المعنوي في:

1-النظرات الساحرة:

فقد يكون للعيون لغة أعمق من لغة الكلام، و وقع أكبر في النفوس، وأثر أعظم في المشاعر، وقد استطاع الشاعر رصد المعاني المتخفية وراء كل نظرة، دون الحاجة إلى نطق كلمة واحدة، كما في حديث امرئ القيس عن نظرات الحنان في عيون محبوبته، في قوله:[2]

تَصُدُّ وَتُبْدِي عَنْ أَسِيْلٍ و تتَّقي بناظرةٍ مِنْ وَحْشِ وَجْرَةَ مُطْفِلِ [3]

فقد شبه نظراتها بنظرات البقر إلى أطفالها، لما فيها من حب وعطف، وما لها من تأثير يأخذ بقلب الشاعر وعقله معاً، ويجعله أسيراً لها.

كما كانت المرأة تجعل من نظراتها سلاحاً تتسلح به لإقناع زوجها بما تريد، كما فعلت زوجة عروة بن الورد، فهي لا تطيق خوضه المخاطر، وتخشى عليه من أي سوء، كما في قوله: [4]

تَقُولُ ألا أَقْصِرْ مِنْ الغَزْوِ، وَاشْتَكَى لَهَا القَوْلُ، طَرفٌ أَحْوَرُ العَيْن دامعُ

سأغنيك عَن رَجع المَلَام بمُزمِعٍ مِنْ الأَمِيرِ، لَا يَعْشُو عَلَيْه المطاوعُ [5]

[1] الغزل في العصر الجاهلي ، أحمد محمد الحوفي ، 55 .
[2] ديوان امرؤ القيس ، عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، 16.
[3] تصد : تعرض ، تبدي : تظهر، أسيل : الخد السهل ، الناظرة : العين ، مطفل : التي لها طفل ، بقرة ذات طفل.
[4] ديوان عروة بن الورد، أسماء أبو بكر محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د. ط، 82 .
[5] أزمع الأمر: أي قرره وأثبت عليه و أصر ، وأظهر فيه حزماً ، يعشو عليه : يقصده ،المطاوع : الموافق على الشيء .

فهي تخاطبه بلغة عيون تملؤها الدموع، والنظرات مبعثها حبها له، وخوفها عليه، فلم تسعفها الكلمات بقول ما تريد، فوجدت من الدمع والنظرات الحزينة المنكسرة وسيلةً لها لإيصال مشاعرها لزوجها، محاولة إقناعه بعدم تركها، وتعريض نفسه للهلاك، ولكنه مضطر إلى مواصلة السعي، وربط الليل بالنهار ليستطيع تأمين مستلزمات الحياة.

وتأكيداً لما سبق، فقد كانت النظرات كافية لإدراك الجمال الروحي للمرأة، وتوصيل ما يعجز اللسان عن نطقه، ومعرفة ما تخفيه من مشاعر، وسراً من أسرار جمالها، استطاع الشاعر كشفه، وحل غموضه وصوغه في شعره.

2-الابتسامة:

وصف الشعراء ابتسامة المحبوبة، وشبهوها بأرق ما يمكن من التشابيه، وذلك لرقة هذه الابتسامة، وما تحدثه من أثر لطيف في نفس الشاعر، من ذلك قول حاتم الطائي : [1]

يُضِيء لَنَا البَيْتُ الظَّلِيلُ خَصَاصُهُ إذَا هِيَ ليلاً حَاوَلَتْ أَنْ تَبَسَّما [2]

فقد جعل الشاعر النور منبعثاً من ابتسامتها لينير ظلام البيت ليلاً، على أن النور الذي يتحدث عنه معنوي يحسه في نفسه، كذلك ما تفعله ابتسامة المحبوبة من حالة نفسية محببة عند الشاعر، تبعث فيه الإحساس بالبهجة والسرور، لذلك عُدَّت " بسمة المرأة من أنواع مفاتنها وعوامل إغرائها"[3]، وعنصراً جمالياً مضافاً إلى جمالها الروحي.

3-صوتها و حديثها:

إن افتتان الشعراء بالشعر والموسيقى يجعلهم يدركون جمال صوت المحبوبة، وما يحدثه النغم في صوتها من تأثير بالغ يفقد العقول، ويأسر القلوب.

---

[1] ديوان شعر حاتم بن عبد الله الطائي وأخباره، يحيى بن مدرك الطائي، رواية هشام بن محمد الكلبي، تح: د. عادل سليمان جمال، مطبعة المدني، القاهرة، د. ط، 234 .

[2] البيت : عيال الرجل ، الظليل : دائم الظل ، خصاصه : جمع خصاصة ، وخصاص البيت والمنخل .

[3] الغزل في العصر الجاهلي ، أحمد محمد الحوفي ، 63 .

فقد شبه الشاعر حلاوة قول محبوبته بالشهد المصفى، كما في قول أبو ذؤيب الهذلي:[1]

مطافيلَ أبكار حَديثٍ نِتاجُها تُشابُ بماءٍ مِثْلِ ماءِ المفاصِلِ [2]

فهو يتغنى بلذة حديثها الذي يشبه بجماله العسل الذي خالط لبن الأبكار من الإبل التي تدر لبناً شابه ماء السيل البارد، فلا طعم يضاهي مذاق العسل الممزوج بلبن إبل حديثة الولادة مع ماء بارد، وقد جاء جمال الوصف من لذة حديثها وما يثيره في عقله من صور جميلة سعى من خلالها إيصال إحساسه بالجمال.

ومما سبق يلاحظ عناية الشعراء بتصوير حديث المرأة، وتبيان وقعه في النفس، لما له من أهمية لدى الرجل لأن " الصوت والحديث من ينابيع الجاذبية، ولقد يستهوي الصوت ويجتذب كما تجتذب النظرة والحركة والجمال" [3]، فهم لاحظوا أدق تفاصيل الجمال.

4-العفة:

لعل العفة من أهم الصفات المعنوية التي تمتعت بها المرأة في الجاهلية، فهي ممنعة ومصانة ومحمية – كالجواهر النفيسة – في ظل مجتمع يقدس العرض والشرف، ويستميت في الحفاظ عليه، وكان من مظاهر العفة عند المرأة ارتداء الخمار، كما في قول دريد بن الصمة: [4]

من الخَفَراتِ لا سَقُوطاً خِمارُها إذا برزَتْ و لا خروجَ المُقَيَّدِ [5]

فهي بحيائها تصون نفسها من خلال وضع الخمار لإخفاء جمالها، وارتداء الثياب الساترة حتى أن موضع الخلخال لا يكون بارزاً لأحد.

[1] - شرح أشعار الهذليين ، صنعه : أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري ، تح : عبد الستار أحمد فراج ، راجعه : محمود محمد شاكر ، مطبعه المدني ، مصر ، د.ط ، 1384 ه – 1965م ، ج1 ، 141 .
[2] أبكار : جمع بكر، وهو أول بطن وضعته ، تشاب : تمزج ، المفاصل : مفاصل الوادي وهي المسايل.

[3] الغزل في العصر الجاهلي ، أحمد محمد الحوفي، 60.
[4] ديوان دريد بن الصمة ، تح: د.عمر عبد الرسول ، دار المعارف ، القاهرة _ مصر ، د.ط، 58 .
[5] لم أخفر: أي لم أنقض عهدها و أسيء عشرتها وجوارها ، المقيد : موضع الخلخال من المرأة .

وبناءً عليه، فإن " حياء المرأة من مكملاتها في نظر الرجل، لأنه دليل على تصونها وعفتها وتمنعها وأنوثتها، وقد أعجب به العرب لأن أخلاقهم قائمة على الغيرة والعفة والإشادة بالمرأة المستكملة لصفات الأنوثة " [1]، فمجتمع الجاهلية كان يعلي من شأن المرأة التي تحافظ على شرفها وسمعتها، لأن رفعة شأن المرأة من رفعة القبيلة، وأي أمر يشين المرأة يجلب العار للقبيلة.

ليس ذلك فحسب، بل لفتهم أيضاً رقة المرأة ورشاقتها، وقد تناولها الفيلسوف الفرنسي هنري برغسون بالتحليل، فهو" ينوه بالأثر النفسي للرشاقة وبإيحائها المحبب اللذيذ ،... كما أن الرقة تطالع القلب في محاسن النساء العربيات اللواتي جمعن من كل شيء أطيبه وأصفاه و أحلاه " [2]، فها هو الأعشى يتغنى بمحبوبته التي تمر برقة ولطف كمر السحابة، في قوله:[3]

كَأَنَّ مِشْيَتَهَا من بَيْتِ جَارَتِهَا مَرُّ السَّحَابَةِ ، لَا رَيْثٌ وَلَا عَجَلُ

فهي عندما تخرج تمشي إلى مقصدها مشية اعتدال واتزان، لا تتلفت حولها، ولا تسرع الخطا، فمرورها برقة كالسحاب في السماء، لطيف الوقع في النفس، فيه إيحاء "على وجه الخصوص بالحب والوصال"[4].

وعليه، فإن عناصر جمال المرأة المعنوية كانت مؤطرة ومحددة في بيئةٍ "يسيطر فيها الرجل سيطرة مطلقة على جميع مجالاتها، لا يبقى للمرأة غير حيز السهر على راحة الرجل المقاتل، ومتعته، وإنجاب الأولاد الذكور، الأقوياء، الصحيحي النسب "[5].

[1] الغزل في العصر الجاهلي ، أحمد محمد الحوفي ، 67 .
[2] بدائع الحكمة ، فصول في علم الجمال وفلسفة الفن ، د.عبد الكريم اليافي ، دار طلاس ، دمشق –سوريا ، ط1 ، 1999 ، 71 _ 77.
[3] ديوان الأعشى الكبير، مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لينان، ط1، 130.

[4] بدائع الحكمة ، د. عبد الكريم اليافي ، 81 .
[5] الوعي الجمالي عند العرب قبل الإسلام ، د. فؤاد المرعي ، 92.

وفي إطار مجتمع قبلي، يعلي من شأن الذكر، ويرفع من قدره، وعُدَّتْ هذه العناصر بمنزلة معيار الجمال المعنوي للمرأة، تماماً كالمعايير التي وضعت للجمال الحسي.

على أن النصيب الأكبر من عناصر الجمال المعنوي حظي بها الرجل، نظراً لما له من دور كبير، ومهام ملقاة على عاتقه، وصفات لابدّ أن تتوفر فيه ليكون ذا مكانة في قبيلته.

-جمال الرجل المعنوي:

و لعل جمال أخلاق الرجل تمثّل في صفتين كانتا أساساً، وقامت عليهما باقي الصفات و القيم، و هي:

1-الحكمة:

كانت الحكمة رأس القيم الخلقية العليا، و الأساس الذي قامت عليه الفضائل في المجتمع، وقد أسهمت في رفد الإنسان بصفات نبيلة جمعتها كلمة (المروءة) في مختلف مظاهرها، من : الكرم، والشجاعة، والحلم، والعفو،وحماية الجار، والوفاء بالعهد، والإيثار، والجود، والصبر على المكاره ونجدة الضعيف، وإغاثة الملهوف....إلخ.

وحملت الحكمة خلاصة خبرة الإنسان، وتجاربه مع معركة الحياة، فهي تعتمد على المنطق، وإخضاع أمور الحياة، إلى العقل.

فالشاعر زهير عاش ردحاً طويلاً من الزمن، وأصبح خبيراً في الحياة، وصروف الدهر ونوائبه، بصيراً بأحواله وتقلباته، فقد أسهم عنصر الزمن بتعميق فهمه ورجاحة عقله، حتى كأنه سَنَّ في شعره دستوراً اجتماعياً نابعاً من عقلٍ مفكّرٍ متأمل، ونفسٍ حكيمة، فهو عاش الحياة وخبرها وسئمها، وهذا حال كل من يُعمِّر، في قوله:[1]

سئمت تكاليف الحياة ومَنْ يَعِشْ ثمانين حولاً لا أبالك يسأم

[1] ديوان زهير بن أبي سلمى، علي حسن فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 110 .

ولعل مدار الحكم التي صيغت شعراً في الجاهلية تدور في فلك الموت، وتهذيب النفس وتزكيتها، للارتقاء بها في مجتمع يمجد الفضائل والقيم الخلقية، ويجعلها محور فخره واعتزازه، كما في قول أبي ذؤيب الهذلي : [1]

و إذَا المَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ

وَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَّبْتَهَا وَإِذَا تُرَدُّ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ

فكان تعبير الشاعر عن رؤيته للموت بأنه كالوحش الموشك أن ينقض على فريسته، فلا تنفع الرقى والعوذ إذا اقتربت المنية، وكان اعتماد الشاعر على الاستعارة قاصداً التأثير في المتلقي فضلاً عن دورها في تجسيد المعنى وتقريبه، كما أراد للنفس الإنسانية السمو والارتقاء بمنعها عما تريد وترغب في الحصول عليه بكثرة، فإذا ما كبح الإنسان جماحها رضيت وقنعت، وقد عبر الشاعر عن موقفه من الموت والنفس عن طريق حكمة مصاغة بطريقة بليغة وموجزة، في قالب شعري متميز متقن ومحكم.

يهدف الشاعر من ورائها إلى توصيل تطلعاته لمجتمع يتفاعل معه الإنسان تفاعلاً إيجابياً، ليكون عنصراً فاعلاً في بنائه أخلاقياً وسلوكياً، فزهير بن أبي سلمى يشير إلى ضرورة التغافل عن زلات الآخرين ومصانعتهم ومجاملتهم، في قوله: [2]

وَمَنْ لَمْ يُصَانِعْ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ يُضَرَّسْ بِأَنْيَابٍ وَيُوْطَأْ بِمَنْسِمِ

فعلى الإنسان ألا يقف في وجه الآخرين ويكون حاداً معهم، بل عليه أن يوافقهم ويكون ليناً في تعامله معهم، وهذا يتطلب كتمان رفضه لتصرفاتهم، وذلك ليعم السلام والطمأنينة في المجتمع، ويحل الخير محل الشر، وقد نقل فكرته عن طريق التشبيه، فقد شبه الشاعر حال مَن لم يدارِ الناس في الدنيا، بحال من يُعَضّ بالأنياب ويوطأ بخف البعير،

[1] شرح أشعار الهذليين ، السكري ، 8 – 11 . ذكر أكثر المؤرخين أن أغلب شعره قاله في إسلامه، ولا يوجد دليل قاطع على أن هذا الشعر في العصر الإسلامي، لذلك أدرج في البحث في إطار العصر الجاهلي.

[2] ديوان زهير،110.

ووجه الشبه بينهما : الذل والإهانة من الناس، وهو بذلك مزج المعنى العقلي بالمعنى الحسي.

ولقصد المبالغة كان لجوء الشاعر إلى الكناية في قوله (يوطأ بمنسم) وأفادت كناية عن صفة الذل والمهانة لمن لم يجامل الناس ويصبر عليهم.

فضلاً عن استخدامه أسلوب الشرط، فوجود الفعل الأول يلزم تحقيق الفعل الثاني، فمن لا يصانع الناس (يضرس) و(يوطأ)، جاعلاً من الفعل الثاني رد فعل قوي على الفعل الأول، وكلاً من (يضرس بأنياب) و(يوطأ بمنسم) صور مُغرقة في البداوة، منتزعة من البيئة البدوية.

و إذا كان الغد حاملاً معه الموت، فلا مفر منه، وإن حاول الإنسان الهروب منه فلن يستطيع، كما في قول عدي بن زيد: [1]

أعاذِلُ مَا يُدْرِيكَ أَنَّ مَنِيَّتِي إِلَى سَاعَةٍ فِي اليَوْمِ أَوْ فِي ضُحَى الغَدِ

ومن جملة حكمتهم أيضاً، التسليم للمستقبل و ما سيحصل فيه، كقول زهير:[2]

وَأَعْلَمُ مَا فِي اليَوْمِ وَالأَمْسِ قَبْلَهُ وَلَكِنِّي عَنْ عِلْمِ مَا فِي غَدٍ عَمِ

فهو يعلم ما حصل اليوم لأنه واقعه الذي يعايشه، وقد علم ما حدث بالأمس، لأنه مر به، لكنه جاهل عن معرفة المستقبل أو التنبؤ بأحداثه، وهذا إن دل على شيء، إنما يدل على ضرورة التسليم لما خفي عن الإنسان، وترقب الغد المجهول، وعبر عن ذلك من خلال الصور العقلية.

ومما سبق، يلاحظ أن زهير في حكمه يعمد إلى الأسلوب التعليمي، بغية التأثير في المتلقي، فقد ظهر من خلال حكمه في رصانته وصدقه فيما يذكر، وحسن اختياره

[1] جمهرة أشعار العرب ، أبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي ، دار صادر ، بيروت – لبنان ، د.ط ، د.ت ، 179 .

[2] ديوان زهير ، 110 .

للألفاظ والعبارات، ووضوح أفكاره إذ لا تعقيد فيها، وابتعاده عن الغموض، فحكمه كانت ترمي إلى تهذيب النفس الإنسانية، وحسن التصرف في مجتمع غلبت عليه الفطرية و البدائية.

أما حكمة طرفة فكانت تتجه إلى البذل والعطاء، فالمال ينقصه الدهر، ولا ينبغي على الإنسان أن يضنّ به ويبخل، في قوله: [1]

أَرَى المَوْتَ يعتامُ الكِرَامَ ويصطفي عَقِيلَةَ مَالِ الفَاحِشِ المُتَشَدِّدِ

أَرَى المَالَ كَنْزاً نَاقِصاً كُلَّ لَيْلَةٍ وَمَا تَنْقُصِ الأَيَّامُ وَالدَّهْرُ يَنْفَدِ

فهو يرى أن الموت يختار أكارم الناس، ويختص أفضل مال البخيل بالفناء والزوال، فكان حضه على إنفاق المال وبذله وعدم ادخاره، لأنه سينتهي يوماً ما، فقد شبه الشاعر تناقص عمر الإنسان كل يوم، بتناقص المال الذي يؤخذ منه، ووجه الشبه: نهاية كل شيء مهما كان عظمه، وهو تشبيه تمثيلي تشابه فيه طرفا التشبيه، وقصد به إيصال فكرته كاملة و التعبير عن نظرته في الحياة.

ولم تقتصر حكم الشعراء على الموت، فعدي بن زيد تحدث عن تأثير القرين على قرينه، ووجوب اختيار الصديق الصالح، فكل قرين يقتدي بقرينه، في قوله: [2]

عَنِ المَرْءِ لَا تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ فَكُلُّ قَرِينٍ بِالمُقَارِنِ يَقْتَدِي

إذا أَنْتَ فاكَهتَ الرِّجَالَ فَلَا تُلِعْ وقُلْ مِثْلَ مَا قَالُوا وَلَا تَتَزَيَّدِ [3]

فهو يوضح أهمية الصدق في حياة الإنسان، لدرجة أن خصال المرء ومزاياه تعرف من قرينه، كما بين أهمية الصدق والابتعاد عن الكذب، والاقتصار في الحديث على ما يؤدي الغرض والمعنى وعدم التزيد فيه والتطويل.

[1] ديوان طرفة بن العبد، شرح الأعلم الشنتمري، تح: درية الخطاب، لطفي الصقال، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان، ط2 ، 49 .

[2] جمهرة أشعار العرب ، القرشي ، 179.

[3] فاكهت : مازحت ، تلع : تكذب .

وبذلك، فقد عبرت الحكم التي أتت على ألسنة الشعراء عن تمسكهم بالقيم والمثل الأخلاقية النابعة من فطرة سليمة، وعقل راجح، ومنطق حكيم، فكانت نتاج خبرة طويلة حصلها الإنسان من تجارب الحياة عبر سنين عديدة، فكانت أصدق تعبير عن الواقع، وصيغت صياغة شعرية محكمة السبك، فصيحة العبارة، موجزة اللفظ، دقيقة المعنى، شديدة التأثير في النفس.

2-الكرم:

إن الحديث عن الكرم في الجاهلية يوجب استحضار شخصيات عُدَّت رموز الكرم في ذلك العصر، مِن مثل (حاتم الطائي) الذي غدا رمزاً للكرم في الجاهلية، ومضرباً للأمثال بجوده وإيثاره، وباتت أخباره مبعثاً للفخر بشيم الإنسان العربي، وجميل صفاته، وأفعاله، فهو القائل: [1]

إِذَا كَانَ بَعْضُ المَالِ رَبّاً لِأَهْلِه فَإِنِّي بِحَمْدِ اللَّهِ مَالِي مُعَبَّدُ

يُفَكُّ بِهِ العَانِي وَيُؤْكَلُ طَيِّباً وَيُعْطَى إِذَا ضَنَّ البَخِيلُ المُصَرِّدُ

فقد كثر الحديث عن طيب مزاياه وخلقه، فقال عنه ابن الأعرابي : " كان حاتم من شعراء العرب، وكان جواداً يشبه شعره جوده، ويصدق قوله فعله، وكان حيثما نزل عرف منزله، وكان مظفراً، إذا قاتل غلب، وإذا غنم أنهب، وإذا سئل وهب، وإذا ضرب بالقداح فاز، وإذا سابق سبق، وإذا أسر أطلق، وكان يقسم بالله ألا يقتل واحد أمه " [2] ، وكان كذلك من خصهم زهير بن أبي سلمى بالمديح في معلقته، وهم (هرم بن سنان) و(الحارث بن عوف) ، لما قاما به من إيقاف حرب عبس وذبيان، التي دامت أمداً طويلاً، وخلفت قتلى كثر، متحملين ديات القتلى، محققين السلام بين القبيلتين، في قوله : [3]

[1] ديوان حاتم الطائي ، 263 .
[2] الأغاني ، أبو الفرج بن حسين الأصفهاني ، تح : د. إحسان عباس ، د. ،براهيم السعافين ، أ. بكر عباس ، دار صادر، بيروت ، ط3 ، 1429ه – 2008م ، ج 17 ، 262 .
[3] ديوان زهير ،105 .

يَمِيناً لَنِعْمَ السَّيدانِ وُجدْتُما عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ سحيلٍ ومُبرمَ

استعار الشاعر لهرم بن سنان والحارث بن عوف سحيل ومبرم، فهما على أتم الاستعداد للكرم والعطاء في جميع الأحوال السهلة أو الصعبة التي تعترض لهم، والاستعارة هنا تصريحية، فقد صرح الشاعر بالمشبه به، وأفادت إظهار عظمتهم وشهامتهم في إيقاف حرب عظيمة دامت أمداً طويلاً، ويكمل بقوله: [1]

تداركْتُما عبساً وَذُبْيَانَ بَعْدَمَا تَفَانَوْا ودقُّوا بَيْنَهُم عِطْرَ مَنْشَمِ

شبه الحرب التي جرت بين عبس وذبيان بعطر منشم المشؤوم، جاعلاً وجه الشبه انتشار الهلاك والدمار.

ويقول:[2]

وَقَد قُلْتُمَا إنْ نُدْرِكِ السِّلْمَ وَاسِعاً بمالٍ وَمَعْرُوفٍ مِنْ الأَمْرِ نَسْلَمِ

فأصبحتما مِنْهَا عَلَى خَيْرِ مَوْطِنٍ بعِيدَيْنِ فِيهَا مِنْ عُقُوقٍ ومأثَمِ

عَظِيمَيْنِ فِي عُليا مَعَدٍّ هُدِيتُما وَمَن يَسْتَبِحْ كنزاً مِن المَجْدِ يَعْظُمِ

فهو يقول شعره مشيداً بالفعل النبيل الذي قاما به، مظهراً عظمة هذين السيدين، موضحاً جمالية أثر خلق إنساني سامٍ في إيقاف حرب طاحنة، جاعلاً من هذا الفعل الجميل مستحقاً التخليد في معلقته، أما جمالية رد الفعل فكان في مديح زهير لهما وإجلالهما، لأن " الشعور الإنساني الأصيل ... أول من يتحرك لدرء الخطر عن وجود الإنسان واستمراريته ... وبوحي من أصالة مشاعرهم هب بعض الجاهليين إلى التنازل عن جزء من ممتلكاتهم أو كلّها لأولئك المهددين بالهلاك، والانتقال من مواقع الأنانية ...إلى مواقع التضحية والإيثار. وتحول الكرم في وعيهم إلى واجب إنساني نبيل، وإلى قيمة

[1] نفسه ، 106.
[2] نفسه ، 106.

اجتماعية سامية، تعيد الاطمئنان "[1]وتنشر السلام في المجتمع، والقبيلة، والأفراد وصولاً إلى النفس الإنسانية.

على أن الكرم الحقيقي لا يقتصر على قضاء حاجات الناس، وتفريج كرباتهم، بل يكون بمراعاة الحالة النفسية للسائل، وإعطائه حاجته عن طيب نفس، وسماحة قلب، لإدخال السرور إلى نفس المحتاج، وعدم إشعاره بالذل والاحتقار، وقد تنبه إلى ذلك عروة بن الورد الذي كان إنساناً راقياً من الدرجة الأولى في تعامله مع الفقراء، فهو كان يعطي حتى وإن لم يسأل، في قوله : [2]

سَلِي الطَّارِقَ المُعْتَرَّ يَا أُمَّ مَالِكٍ إذَا مَا أَتَى بَيْن قَدْرِي ومَجْزِرِي

أيسفرُ وَجْهِي، إنَّهُ أَوَّلُ القِرَى وَأَبْذلُ معروفي لَهُ دُونَ مُنْكَرِي

جعل عروة بشاشة الوجه أول الكرم، أما عمرو بن الإطنابة فقد جعل من المساواة بين الناس، وعدم التمييز بين الفقير والغني من أرفع درجات السلوك الإنساني التي تدل على حقيقة الكرم قائلاً:[3]

والخالطينَ فَقِيرَهُمْ بِغَنِيِّهِمْ والباذلينَ عطاءَهم لِلسَّائِلِ

فعند حدوث المجاعة في أيام الجدب والقحط، يتساوى حال الناس في الفقر، ما يدفع الصعاليك إلى الغزو للحصول على الطعام، وكما في قول الشنفرى : [4]

وأُعْدِمُ أحياناً وَ غْنَى و إنَّمَا يَنَالُ الغِنى ذُو البُعْدَةِ المُتَبَذِّلِ

على أن اختلال ميزان العدالة الاجتماعية في المجتمع الجاهلي _ من وجهة نظر الصعاليك _ أدى إلى أن يصبح زعماء القبائل وساداتها الطرف المستحق للهجاء في

[1] ظاهرة القلق في الشعر الجاهلي ، أحمد الخليل ، دار طلاس ، دمشق ، ط1، 175 -176.
[2] ديوان عروة ، 78 .
[3] معجم الشعراء ، المرزباني، تح: عبد الستار أحمد مزاج، دار إحياء الكتب العربية، د . م ، د. ط، 9 .
[4] ديوان الشنفرى ، د. إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت_لبنان، ط2، 69 .

شعرهم، بينما أبقوا المديح لأنفسهم لأحقيتهم به، إذ ليس أعلم بحال الصعلوك إلا صعلوك مثله، يكنّ له التقدير والاحترام في مجتمع نفاهم وطردهم، وأهانهم.

-ارتباط الكرم بالماء ومدلولاته:

إن شجاعة الإنسان، وفروسية الفارس لم تقف على خوض المعارك والحروب، بل إن الفارس أيضاً من كان كريماً جواداً معطاءً، في بيئة عانى قاطنوها من قلة الموارد، وموجات الجوع والجفاف.

ولما كان الماء هو الباعث على الحياة، ومن أساسيات وجود الإنسان والحيوان والنبات، كانت أهمية ارتباطه بصفة أدت إلى تمجيد الإنسان الجاهلي، وتخليده من جهة، ومن جهة أخرى أعانت غيره على البقاء، وساعدته للتغلب على الفقر الذي يكاد يشمل أغلب الأفراد، لأن " المجد الجاهلي، في جميع كيفياته، صورة صادقة لطبيعة الواقع الجاهلي. إنه مثقل بما في ذلك الواقع من طموحات، وغايات، ووسائل. كما أنه تعبير عن نزوع الجاهليين إلى المثالية، وميلهم إلى الاعتصام بالموروث. وهو في الوقت نفسه، تجسيد لمبدأ القوة " [1]، فكرم القلب جسدته الشجاعة، أما كرم اليد فتمثل في الجود.

وقد عبر الشعراء عن كرم ممدوحيهم من خلال جعل يد الممدوح المانحة للعطاء كالسماء التي تمطر مطراً غزيراً، كما في قول علباء بن الأرقم : [2]

وَإِنَّ يَدَ النُّعْمَانِ لَيْسَت بكَزَّةٍ وَلَكِن سَمَاءٌ تُمطِرُ الوَبلَ والدِّيَمْ [3]

أما زهير فقد جعل ممدوحه كالغيث، فهو المغيث والملجأ لمن يلوذ به، في قوله: [4]

وَهُو غَيْثٌ لَنَا فِي كُلِّ عَامٍ يَلُوذُ بِهِ المُخَوَّلُ وَالعَدِيمُ [5]

[1] ظاهرة القلق في الشعر الجاهلي ، أحمد الخليل ، 175-176 .

[2] الأصمعيات ، الأصمعي ، تح: أحمد محمد شاكر ، عبد السلام هارون ، د . م ، بيروت – لبنان ، ط5 ، د.ت ، 159.

[3] كزة: منقبضة ، ورجل كز اليدين أي بخيل ، الوبل : المطر الغزير.

[4] ديوان زهير ، 119 .

[5] المخول : ذو المال من عبيد وإماء وغيرهم (يلوذ به مستجيراً)، العديم : الفقير (يفزع إليه مستجدياً).

ومنه قول الأعشى : [1]

كالغيثِ مَا استمطَرُوهُ جَادَ وَابِلُهُ وَعِنْدَ ذِمَّتِهِ كالمُسْتأسِدِ الضَّارِي

وقد شبه النابغة الذبياني عطاء ممدوحه بالربيع، متى ما حل أزهرت الأرض، واخضرت، وأنبتت، في قوله : [2]

وأَنْت رَبِيعٌ يُنْعِشُ النَّاسَ سَيْبُهُ وَسَيْفٌ، أُعيرَتْه المَنِيةُ قَاطِعُ

فهو في عطائه يعيد الحياة لمن يعطيه، تماماً كالربيع الذي يعيد ألوان الحياة للأرض بعد فصول جفاف طويلة.

وفي قول الشاعر (هو غيث) وقول الآخر (أنت ربيع) أعطيا الممدوحين الاستطاعة والقدرة للحلول محل الغيث إذا انقطع، ومحل الربيع إذا تأخر، فعطاء كل منهما يهب الحياة بصرف النظر عن تقلبات الطبيعة.

لكن في الوقت نفسه عمد الشعراء إلى التنبيه على قدرة ممدوحيهم وبطشهم، فهو (كالمستأسد الضاري) و(السيف القاطع).

-ارتباط الكرم بالخمر ومدلولاته:

وعلى ما في المجتمع الجاهلي من عادات منافية لتعاليم الدين الإسلامي الذي جاء فيما بعد، إلا أنها حملت في داخلها دلالات إيجابية على التحلي بصفة خلقية نبيلة، فكان شرب الخمر وإتلاف المال فيها دلالة من دلالات الكرم والجود، حتى أن لذة مذاقها قادرة على جعل البخيل ينفق ماله في سبيلها، كقول عمرو بن كلثوم : [3]

تَرَى اللَّحِزَ الشَّحِيحَ إِذَا أُمِّرَتْ عَلَيْهِ لِمَالِهِ فِيهَا مُهِينا

[1] ديوان الأعشى ، 88 .
[2] ديوان النابغة الذبياني ، 57 .
[3] ديوان عمرو بن كلثوم ، تح: د. إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت_ لبنان، ط1، 65 .

ولم يقف ولع الشعراء بها عند هذا الحد، بل إنهم وصفوا الإناء الذي وضعت فيه وصفاً دقيقاً، يخيل للقارئ أنها أمامه، كما في قول عنترة : [1]

وَلَقَد شَرِبتُ من المُدَامَةِ بَعْدَمَا ... رَكَدَ الهواجرُ بِالشَّوْف المُعْلم [2]

بزجاجةٍ صَفْرَاءَ ذَاتِ أَسرَّةٍ ... قُرِنَتْ بأَزْهرَ فِي الشِّمَالِ مُفَدَّمِ [3]

فَإِذَا شَرِبْتُ فَإِنَّنِي مُسْتَهْلِكٌ ... مَالِي وَعِرْضِي وأَمْرٌ لَمْ يُكلمِ [4]

وَإِذَا صَحوْتُ فَمَا أُقَصِّرُ عن ندىً ... وَكَمَا عَلِمْتِ شمائلي وتَكَرُّمي

فعندما اشتد الحر قام بشرب الخمر من كأس مجلوة منقوشة، وكانت الخمرة موضوعة في زجاجة صفراء مخططة ومعها إبريق مسدود الفوهة ليصب الخمر في الزجاجة، على أنه إذا شرب الخمر يهلك ماله فيه من غير أن يشين عرضه، فهو مهلك ماله، حافظ لعرضه، لأن السُكْر لا ينقص من عقله شيء، لأنه عندما يصحو لا يقصر عن الجود.

وهكذا، فقد مثَّل الجانب المعنوي الجمال الحقيقي للرجل، فهو جميل بأخلاقه النبيلة وفعاله العظيمة التي تثبت رجولته في نظر قبيلته وعشيرته وأهله إذ يروي صاحب الأمالي عن ابنة الخُسّ أنها سئلت : " أي الرجال خير؟ قالت :

خيرُ الرجال المُرهَّقون ... خير تلاع الأرض أوطؤُها

قال: أيُّهم؟ قالت: الذي يُسأل ولا يسأل، ويُضيف ولا يُضاف، ويُصلِح ولا يُصلَح"[5].

---

[1] ديوان عنترة ، 125 .

[2] ركد : سكن ، الهواجر : جمع هاجرة وهي أشد الأوقات حراً ، الشوف : الدينار المجلو ، وأراد به القدح الصافي المنقوش ، المعلم : فيه علامة .

[3] أسرة : الخط من خطوط اليد والجبهة ، أزهر : إبريق ، مفدم : مسدود الرأس .

[4] لم يكلم : لم يشبه عيب.

[5] ذيل الأمالي والنوادر، أبي علي اسماعيل بن القاسم القالي البغدادي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، 1976، 119.
وهي هند بنت الخُسّ، بن حابس بن قريط الإيادية، وكانت ذات فصاحة وحكمة وجواب عجيب ... من أهل الدهاء والنكراء، ومن أهل اللسن واللقن. البيان و التبيين، الجاحظ، مكتبة، الخانجي، القاهرة، ط7، 1418ه-1998م، ج1، 312.

فكلها صفات معنوية ولا وجود لأي صفة حسية، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على أهمية الجانب المعنوي عند تقويم الرجل، وطغيانه على الجانب الحسي.

-نتائج البحث:

-حمل الوعي الجمالي بقيمة الجميل عند الجاهلي سمات النضج واقترابه من الكمال، أكثر من كونه وعياً بدائياً ساذجاً.

-إحساس الجاهلي بالجمال في كل ما يلاحظه حوله، وعدم اقتصاره على المرأة، بدا واضحاً و مدعماً بشواهد شعرية عبرت عن فخر الشعراء بجميل الأخلاق والصفات النبيلة وحرصهم على تضمينها في شعرهم.

-التأكيد على جمال المرأة المعنوي، فهو الذي يجعلها تصل إلى قلب المحب، وليس فقط جمالها الحسي، وذلك من خلال رصد الجاهليين لمكامن الجمال في النظرات والصوت والحديث والرشاقة وعفة المحبوبة.

-أظهر البحث جمالية اتصاف الرجل بالحكمة و الكرم، فقد عشق العرب جميع صفات الرجولة والقوة والرصانة والاتزان.

-برع الشاعر الجاهلي في توظيف ألوان البيان من : تشبيه، واستعارة، وكناية، وتكريسها للتعبير عما يدور في عقله، ووصف ما يراه دقيقاً، فضلاً عن البعد الجمالي لكل لون بياني ؛ فقد عبرت الكناية عن مقصد الشاعر بأسلوب إيحائي ورمزي، وقرَّب التشبيه صورة البعيد وجعلها أقرب للواقع، وساعدت الاستعارة في ابتكار صور خيالية جديدة والتعبير عنها بألفاظ تحمل أحاسيس الشاعر وتنقلها إلى المتلقي، ليكون قادراً على تذوق جمالية العمل الفني.

-لجأ الشاعر إلى تشبيه كرم ممدوحيهم بالماء وارتباط كرمهم بالخمر، لما للماء من أهمية كبيرة في حياتهم، فالماء هو الباعث على الحياة و كذلك الجود و الكرم.

أما الخمر فكان يعبر عن الرغبة في الخلود ورفض الفناء، وعليه فإنفاق المال في سبيله يكسبهم الإحساس بالمتعة ويسمهم بالكرم، والماء والخمر يرمزان إلى استمرارية الحياة، و كذلك الكرم يخلد ذكر من كان جواداً بعد موته، و كأنه يبقى على اتصال مع الحياة.

المصادر و المراجع:

الأصمعيات، الأصمعي، تح: أحمد محمد شاكر، عبد السلام هارون ، د . م ، بيروت – لبنان ، ط5 ، د.ت .

الأغاني ، أبو الفرج بن حسين الأصفهاني ، تح : د. إحسان عباس، د. ،براهيم السعافين ، أ. بكر عباس ، دار صادر، بيروت ، ط3 ، 1429هـ – 2008م .

بدائع الحكمة فصول في علم الجمال وفلسفة الفن ، د.عبد الكريم اليافي ، دار طلاس ، دمشق – سوريا ، ط1 ، 1999 م.

البيان و التبيين، الجاحظ، مكتبة، الخانجي، القاهرة، ط7، 1418هـ–1998م

تاج العروس من جواهر القاموس، مرتضى الزبيدي، تح: علي شيدي، دار الفكر، بيروت_ لبنان، 1414هـ – 1994م .

تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام ، د. شكري فيصل ، مطبعة جامعة دمشق ، سوريا ، د.ط ، 1379هـ – 1959م .

جمهرة أشعار العرب ، أبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي ، دار صادر ، بيروت – لبنان ، د.ط ، د.ت .

ديوان الأعشى الكبير، مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لينان، ط1، 1407هـ – 1987م .

ديوان الشنفرى، د. إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت_لبنان، ط2، 1417هـ – 1996م .

ديوان النابغة الذبياني، عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت_لبنان، ط3، 1416هـ – 1996م .

ديوان امرؤ القيس، عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، 1425هـ - 2004م .

ديوان دريد بن الصمة ، تح: د.عمر عبد الرسول ، دار المعارف ، القاهرة _ مصر ، د.ط ، د.ت.

ديوان زهير بن أبي سلمى، علي حسن فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1408هـ - 1988م .

ديوان شعر حاتم بن عبد الله الطائي وأخباره، يحيى بن مدرك الطائي، رواية هشام بن محمد الكلبي، تح: د. عادل سليمان جمال، مطبعة المدني، القاهرة، د. ط ، د. ت .

ديوان طرفة بن العبد، شرح الأعلم الشنتمري، تح: درية الخطاب، لطفي الصقال، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان، ط2، 2000م .

ديوان عروة بن الورد، أسماء أبو بكر محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د. ط، 1418هـ - 1998م.

ديوان عمرو بن كلثوم، تح: د. إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت_ لبنان، ط1، 1411هـ - 1991م .

ديوان عنترة، تح: محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي، القاهرة، د. ط، 1970 م.

ديوان لبيد بن ربيعة العامري، دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت

ذيل الأمالي والنوادر، أبي علي اسماعيل بن القاسم القالي البغدادي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، 1976

شرح أشعار الهذليين ، صنعه : أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري ، تح : عبد الستار أحمد فراج ، راجعه : محمود محمد شاكر ، مطبعه المدني ، دار العروبة ، 1384 هـ – 1965 م.

شعر عمرو بن معدي كرب الزبيدي، مطاع الطرابيشي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق_سوريا، ط2، 1405هـ – 1985م .

ظاهرة القلق في الشعر الجاهلي ، أحمد الخليل ، دار طلاس ، دمشق ، ط1 ، 1989م.

الغزل في العصر الجاهلي ، أحمد محمد الحوفي ، مطبعة لجنة البيان العربي ، نهضة مصر ، مصر ، ط1 ، د.ت .

القاموس المحيط، مجد الدين بن يعقوب الفيروز آبادي، تح: أنس محمد الشامي، زكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، د. ط، ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م .

لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور ، دار صادر ، بيروت ، د.ط ، د.ت.

المصباح المنير ، أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي ، المكتبة العلمية ، بيروت – لبنان ، د.ط ، د.ت .

معجم الشعراء، المرزباني، تح: عبد الستار أحمد مزاج، دار إحياء الكتب العربية، د . م ، د. ط، 1379هـ – 1960م .

المعجم الفلسفي ، مراد وهبة ، دار قباء الحديثة ، القاهرة ، ط 5 ، 2007 م .

المعجم الفلسفي ، د. إبراهيم مدكور ، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ، القاهرة ، د.ط ، 1403هـ – 1983م .

المعجم الفلسفي، د. جميل صليبا ، دار الكتاب اللبناني ، مكتبة المدرسة ، بيروت – لبنان، د. ط ، ١٩٨٢م .

مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، القاهرة، د. ط، ١٣٩٢ هـ – ١٩٧٢م .

مقدمة في علم الجمال و فلسفة الفن ، د. أميرة حلمي مطر ، دار المعارف ، القاهرة ، ط1 ، 1989م .

الوعي الجمالي عند العرب قبل الإسلام، د. فؤاد المرعي، الأبجدية للنشر، دمشق، سوريا، ط1، 1989م .